التصور الصوفى
لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

فى أدب السحار

للدكتور
القطب يوسف أحمد زيد
وشهرته : صفوت زيد

بسم الله الرحمن الرحيم

(وكذلك أوحينا اليك روحـــا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان • ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشـــاء من عبادنا) •

سورة الشورى آية (٥٢)

تناول السحار حياة الرسول ﷺ منذ ولادته الى مبعثه الشريف على نحو خاص يختلف بعض الشىء عن الطريقة التى يعالجها بهـــا غيره من الباحثين والدارسين •

وربما كان لمنهجه القصصى دخل كبير فى حرصه علىتتبع أطوار حياته ، والتعرض من خلالها لأحداث الحياة فى مكة وخارجها ، ومدى ارتباطها بقصة السيرة المحمدية •

وقد أقام السحار تصوره لحياة الرسول ﷺ قبل البعثة مستلهما فكره الألم التى دفعته الى الوحدة والتأمل فى الكون والحياة،وشحذت ذهنه من أول لحظة الى البحث عن الموجود الأسمى الذى خلق كل شىء وقدره تقديرا ، وانه ﷺ كان له من ظروف حياته ونشأته ما ساعده على هذه النظرة • فهو على حدقول السحار :

« منذ ولد ، وضع فى الطريق الذى ينتهى به الى الله »(١) •

فاليتم قد ترتب عليه الألم ، والألم أتاح له المعاناة والوحدة ، وقد أعانته الوحدة على اكتشاف جوهر نفسه ، وأعانه استرضاعه فى بنى سعد وكثرة ترحاله على التعرف على الطبيعة ، والقاء نفسه فى أحضان الوجود ، وكان فقيرا ليشب وجدانه متعاطفا مع شعور الفقراء •

يرى السحار أن مجموع ذلك كله قد أتاح للرسول ﷺ حياة روحية حافلة بالتأمل ، الذى أخذ يتطور ويزداد يوما بعد يوم ، وتزداد معه بالتالى درجة اقترابه من الحقيقة الكبرى التى هام بحبها •

ويبدو أن فكرة الارتقاء الروحى هذه قد ملكت على الكاتب لبه ، ووجهت زمام تفكيره فراح يبرزها واضحة تمام الوضوح فى كل موقف فمحمد عليه الصلاة والسلام كان « يروض نفسه على أن يزداد فى كل يوم قربا من القوة الالهية ، وأن يعلو على وجـــوده البشرى ، وأن يتناسق مع الكون ليهتـــدى الى السبيل الذى يقوده ليطيع العـــالم بطابعه الذى يستمد أدبه من فوق السموات العلى »(٢) •

وحتى ينتهى الى هذا الاهتداء ويتعرف عليه « لابد من الصراع

---

(١) اليتيم • الأستاذ عبد الحميد السحار ص ١٣٣ •
(٢) المصدر السابق ص ١٣٢ •

لحظة لحظة ، ومجاهدة النفس يوما بعـد يوم للوصـول الى الكائن المثالى بكماله وسموه ، وان محمداً ليصارع نزواته ودوافعـه فى كل لحظة ويجاهد ذاته فى سبيل الكشف عن الحقيقة »(٣) •

تلك الحقيقة التى ظلت فى خياله مجرد احساس عبر عنه السحار بالشىء الغامض الذى لم يتسع ادراك محمد فى شبابه الأول الوقوف على حقيقته •• وان كان يحس أن هناك شيئا ما يشده اليه •

وظلت حاله على تلك الحال من المجاهدة والصراع بـين الروح وما تهفو اليه ، والجسد ونوازعه • حتى تحقق له ما يصبو اليه من سعادة الوصول فى الوصال •• فعبرت روحه كل حاجز المادة ، وعاشت آمنة مطمئنة فى رحاب الكمال •• وهذه درجة عليا فى الارتقار والكشف وصل اليها رسول الله بعد مجاهدة شاقة ، وكفاح مستمر طويل •

يعبر السحار عن ذلك بقوله « قد تحقق له ما أراد له الله ، فقد ارتفعت روحه على جسده وفتحت نوافذ نفسه لأنوار العلم والحكمة، وصارت هناك صلة باطنية بينه وبين ربه ، ولم يبق الا أن يندمج فى دنيا الناس يمارس البيع والشراء ، ويرصد عن كتب ما فى البشر من خير وشر ، ويعد خير اعداد للنهوض برسالة السماء »(٤) •

ومما لاشك فيه أن الظروف التى نشأ فيها رسول الله ﷺ ، كان لها أبعد الأثر فى ارهاف ذاته ، وعمق تأمله •ولكنه عليه الصلاة والسلام منذ ولادته ، وقبل أن يعرف اليتم ، وتنفطر ذاته به ، خر سـاجدا واعتدل شاخصا ببصره الى السماء ، وكأنه بعد أن سجد لله سـبح بالحمد ، وقـدس ذات الله بالثـناء عليه ، ثم نظر متفـكرا فى بديع ملك الله •

---

(٣) المصدر السابق ص ١٣٣ •
(٤) خديجة بنت خويد ص ٣٥ •

فالتأمل فطرة فطر عليها من أول يوم ، وولدت معه عوامل الصفاء والنقاء وحب الله .. بل انه منذ كان نورا فى وجه أبيه ، تغيرت بسببه نظرة عبد الله الى الوجود ، وأحس تعاطفا أليفا مع كل شىء فى الحياة، انه كان يشعر بذلك كلما جلس الى نفسه ، أو ساح فى ملك الله ينظر ويتأمل . وكذلك كانت آمنة بعدما حملت به ، فقد تغير احساسها بالحياة وتبدل . كانت ترى فى كل ما تقع عيناها عليه بهجة الحياة وأنس السعادة ، وحلاوة الجلال . وكأن هناك وشائج قربى تصلها فى ود أليف بكل ما حولها ومن حولها .

وفى بيئة وجوده ﷺ فى بنى سعد مع سنوات نشأته الأولى ، عرف عنه مخالطوه ميله للوحدة والتأمل ، وبعده عن صخب الأطفال وضجيجهم وعندما صعد الجبل ، واستقر على ذروته يتأمل ملك الله فى حب وشوق ، وعلمت حليمة وزوجها بما كان منه ، صعدا اليه فى حذر حتى لا يحس بهما ، فلما انتهيا اليه وجداه باسما هانئا متأملا آملا فى رحاب الله يتطلع الى السماء مأخوذا بعظمة الخالق جل جلاله .

وقد حرص السحار على تصوير ذلك والتعبير عنه من خلال سياق القصة ، الا أنه لم يلتفت كثيرا الى هذا التأمل الفطرى الذى ولد معه مركز كل التركيز على العوامل الدافعة للألم ، بادئا باليتم وما تبعه من فقد الأم والجد والعم . جاعلا منه الأصل والأساس فى توجيه الرسول ﷺ الى حياة التأمل .

ومن منطلق هذا التركيز على معطيات اليتم وآثاره النفسية رأينا السحار يفسر اشتغال الرسول برعى الغنم على أنه كان مدفوعا اليه بشىء من الملل الذى ولدته حياة الفراغ التى كان يحياها فى رحاب جده وحضانته . فقد رأى ﷺ أن حرفة الرعى هذه سوف تحقق له بعض الراحة النفسية الذى يحس بها كلما عاش فى رحاب الطبيعة .

فلم يكن اشتغاله بالرعى يرجع الى فقره وانما كان يرجع الى شعوره بالملل وتطلعه الى آفاق السماء ... ولا نوافق السحار على هذا التفسير لأن فيه مبالغة شديدة فى النشأة اليتيمة للرسول ﷺ وانعكاس آثارها على حياته وسلوكه • ونرى أن اشتغال الرسول بالرعى كان توجيها ربانيا واعدادا الهيا لحياة من سيتولى ابلاغ وحى السماء الى الأرض برسالة خاتمة موجهة الى العالمين •

فلم تكن حرفة الرعى هذه الا تدريبا واعدادا للأنبياء على الادارة وحسن رعاية الأحوال ، وتمرسا فى أجود مجالات التدريب ، وأصدقها صقلا لتربية عاطفة حب الخير من غير انحراف بالعاطفة الخاصة •

كما أن حرفة الرعى هذه كانت مجالا لاكتساب خبرات أساسية فى القيادة تتمثل فى : الصبر ، والرضا ، واحترام ظروف الغير(٥) •

ومهما يكن من أمر فان خروج الرسول ﷺ الى الصحراء واشتغاله برعى الغنم فيها كان فتحا جديدا فى حياته ، فقد اتسعت آفاق تأمله وتعمقت نظرته الى الوجود بعد أن رأى من بديع صنع الله تعالى ما يبهر القلوب والأبصار •

ويرى السحار أن اطالة التأمل والتفكر فى الكون والحياة تعتبر مفتاحا فى يد المتأمل يستطيع به ان يلج الى أعمق الأسرار المحجوبة، ويصل بسببه الى ادراك الحقائق • وأن ذلك لا يتم طفرة واحدة•بل لابد من مجاهدة النفس ، وادامة التأمل والنظر فى ملكوت الله ، وأن هذا التأمل وتلك المجاهدة هي سبيلنا الى الترقي والوصول الي أعلي المقامات •

---

(٥) بشائر النبوة الخاتمة د• رؤوف شلبى ص ٢١٦ •

وعلى هذا الأساس فسر حياة الرسول ﷺ التـــأملية •• يقول : كانت سعادته منذ أن تفتحت براعمه فى المعرفة ونشدان الخير الأسمى كانت بذور الحكمة تلقى فى أغوار ضميره بالاستغراق فى الفكر، والنظر الى الكون ، واستشفاف الحقائق ومحاولة الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تحفق فى الوجود ، وأن ينبثق فى ذات نفسه نور من النور(٦) •

فالعلم الذى تعلمه ، والمعرفة التى وصل اليها جاءته من هـــذا التأمل • لأنه لم يجلس يوما الى معلم وكان « جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة أما محمد فلم يكن ليحفل بذلك العلم الذى تحشى به رؤس غلمان سادات مكة عند الملتزم • فهو يتلقى من هيامه فى البيداء ومن تأمله فى الوجود أسرارا يعجز عن كشف مغاليقها من نصـــبوا أنفسهم لتعليم طلاب العلم عند الملتزم »(٧) •

وهذه الأسرار وتلك المعرفة ــ فى تصور كاتبنا ــ جعلت تتمـــو وتقوى وترتقى بالرسول من حال الى حال حتى وصل ﷺ الى درجة اليقين كما سنرى فيما بعد •

وانطلاقا من فكرة الألم الدافعة الى التفكير والتأمل رأينا السحار يتوقف كثيرا عند أحداث الحـــزن التى واجهت محمدا فى حياته منـــذ صغره ، مبرزا أثرها فى تكوينه التأملى ودورها فى اذكاء شعوره وميله الى الوحدة •

فنراه عند موت أمه فى الطريق كان شديد الحزن شديد الانتحاب، يحس احساسا أليما بالنهاية التى انتهت اليها أمه الحبيبة فأخذ يفكر

---

(٦) اليتيم •• ص ٤٩ •
(٧) المصدر السابق ص ٩٤ •

فيما حدث ويحدث ••• لقد أيقن أن لكل شيء نهاية « وراح يفكر فى الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قوة الفناء لأول مـرة ، تفكيرا يتـلائم مع سنه أقرب الى الاحساس منه الى استجلاء كنـه الحياة والموت وما بعد الموت ، وقد كان ذا عقل راجح ، وبصر نافذ، واحساس مرهف ، وتناسق مع الكون سوف يقوده فى أيام نضجه الى جوهر الحقيقة »(٨) •

وعندما مات جده عبد المطلب عاش اللحظة التأملية نفسها ، وقد أجاد كاتبنا وصف مشاعر نفسه الأليمة فى هذا الموقف منتهيا الى أن احساسه بفقد جده كان مدعاة للتفكير والتأمل •

فكثيرا ما كان يجلس متفـكرا فى شئون الحياة ، فامتلأ ذهنـه بأسئلة كثيرة لم يجد لها جوابا فى ذلك الوقت •• ولكنـه كان يحس تعاطفا وتآلفا مع الوجود •

كما أنه كثيرا ما ينطلق الى الفضاء العريض «فيستشعر أن الكون كله محرابه ، وأن كل نظرة الى السماء التى لا تحد •• صلاة »(٩) وكان ﷺ يشعر بالسعادة تملأ كيانه كلما نهل من فيض أسرار الوجود نتيجة لتأملاته ••• ولذلك راح يجاهد ويكابد ••• يجاهد نفسـه ، ويكابد حياته فى محاولة تخليصها من أدران المادية ليسمو بها الى مدارج الكمال والسمو •

وكانت فكرة الارتقاء الروحى عن طريق المجاهدة والاندماج الدائم فى عالم الطبيعة نابعة من تصور السحار لحياة الألم والوحـدة التى عاشها الرسول ﷺ ومكملة لمنهج الكاتب فى معالجته القصصية ، على

---

(٨) المصدر السابق ص ٥٩ •
(٩) المصدر السابق ص ١٠٦ •

أساس هذه الرؤية الصوفية التى تناول من خلالها حياة الرسول قبل المبعث •

وقد ظهر ذلك واضحا فى كثير من مواقف السحار أثناء سرده • فقد رآيناه ينتصر لفكرة الارتقاء هذه • فى قوله « انه ما كان يقنع بما يحقق كل يوم من كسب روحى ، ولا يستديم الى ما يحرز من نصر على ما فى الطبيعة البشرية من نقص •• بل كان يحاول أن يزيد فى الروابط التى تربط بينه وبين الطبيعة •• بل ويرتفع الى ما فوق الطبيعة لكى يمضى نحو تطور روحى يجعله أهلا لأن يندمج ذات يوم فى ذات الذوات »(١٠) •

وتبعا لهذا الارتقاء عن طريق المجاهدة كان الاحساس بالحقيقة الخالدة ــ أيضا ــ يتطور ويكبر شيئا فشيئا فى عين ذاته حتى وصل الى كمال وجوده نجد ذلك فى قوله : ان ذلك الاحساس الغامض لم ينكشف بعد فى وضوح العين عقله •• انه الاحساس العميق بالحقيقة الخالدة ، وسيتطور ذلك الاحساس على مر الأيام الى نور وهدى ورحمة للعالمين(١١) •

وقد عرف بفطرته السليمة ان غاية الحرية المطلقة •• أن يندمج فى الله وأن الخلود هو أن يذوب فى روح الوجود • ومن أجل ذلك : « ضرب على نفسه عزلة شاقة مضنية ، وفطم جوارحه عن الشهوات ، ووصل الليل بالنهار فى التماس رضوان الله ليصنعه على عينه ليكون الانسان الكامل والمبدع القيم • والنبراس الذى يضىء طريق الله للعالمين »(١٢) •

---

(١٠) المصدر السابق ص ١٢١ •
(١١) المصدر السابق ص ١٢٦ •
(١٢) المصدر السابق ص ٩٤ وما بعدها •

ومازال يجاهد على الطريق فى سبيل الوصول الى الحقيقة منتقلا من درجة الاحساس الى درجة المعرفة الى درجة المحبـــة .. أو ما يسمى عند الصوفية بالمقامات . لا يتوانى عن جهاده فى ليل أو نهاره حتى عرف الطريق الى الغار . وفيه « عرف كمال الحب ، فصـــار الله محبوب قلبـــه ومعبود فؤاده ، ومقصود روحـــه ، فاذا طرب لطيب أصوات الطيور ، واذا سعد بروح نســـيم الأسحار . فهو متفـــرج بجلال خلق الله .. فقد صار الله قليه ، وصارت لذته ادامة النظر فى وجهه »(١٣) ، لأن قلبه قد سلم من غير الله واستعد للمعرفة بقلبـــه لا بجارحة من جوارحه ، فانكشفت له الحقائق بكشف آلهى بعـــد أن ارتفع الحجاب بلطف من الله ، فلمع فى قلبه من وراء ســـتر الغيب شىء من غرائب العلم كالبرق الخـــاطف .. انه الالهـــام والنفث فى الروع »(١٤) .

والسحار بهذا التصور لشخصية الرسول ﷺ ينطلق من منزع صوفى واضح لا خفاء فيه متناسيا مزية الاصطفاء الربانى للأنبياء ، وانهم ليسوا كغيرهم من البشر فيما هيأ الله لهم من مذخور عطـــائه ، وعظيم آلائه ، فهم انما يربون فى رعاية الله ، ويهيأون لتحمل أمـــانة الرسالة بعناية من الله .

فاذا كانت المجاهدة سبيلا الى الترقى والوصول الى مرتبة النبوة لا نفتح بها المجال أمام سائر البشر ، ولتمكن من سار على طريقها من الوصول اليها . ولكن الحق جل جلاله يبين فى كتابه المنزل انه يختار رسله ويصطفيهم نجد ذلك فى قوله « الله يصطفى من الملائكة رســـلا

---

(١٣) المصدر السابق ص ١٢٦ .
(١٤) المصدر السابق ص ١٨٥ .

ومن الناس »(١٥) فلا مجال اذن للادخول فى تصورات خاطئـــة من شأنها افساح المجال لموجات من الجدل حول حقيقة النبوة ، وهل هى فطرية أو مكتسبة ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التى احتدم الصراع حولها بين التيارات المختلفة زمنا طويلا •

وكان رأى أهل السنة فى هذا المجال أقرب الآراء اعتـــدالا لأنه جاء متوافقا مع ما ترشد اليه اشارات القرآن الكريم •• فقد قامت نظريتهم فى النبوة على « أن فى نفس النبى ومزاجه كمالا فطـــريا استحق به النبوة ، وسما بسببه الى الاتصال بالملائكة وقبول الوحى• والأنبياء هم صفوة الناس وخيرة الله فى خلقه • يقول الشهرستانى : فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة ، يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ونقاء الجوهر ، فـــيرفعهم مرتبة مرتبة ، حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة ، وكملت قوته النفسانية وتهيأت لتقبـــول الأسرار الالهية بعث اليهم ملكا وأنزل عليهم كتابا »(١٦) •

فالنبوة فطرية مجـــال فيها للاكتســـاب لا بالرياضة الروحيـــة ولا بالمجاهدة النفسية ولا بغيرها من ألوان تزكية الروح التى يمارسها غير الأنبياء من البشر • فهذه الألوان من الممارسات مكفولة لســـائر الناس لا فرق فى ذلك بين متصوفين وغير متصـــوفين ولا بين دينيين وغير دينيين •

وعلى هذا الأساس لا نؤيد السحار فى تصوره لنشأة الرســـول ﷺ وحياته قبل المبعث ، وما أحاط به هذه الحياة وتلك النشأة من رؤية صوفية صارخة أعلنت عن نفسها فى وضوح من خـــلال سرده القصصى • وجـــاءت متوافقة فى كل ملامحها مع الفكر الصـــوفى فى

---

(١٥) سورة الحج • آية ٧٥ •

(١٦) فى الفلسفة الإسلامية د• ابراهيم مدكور •

سبحاته ونظراته • فالرياضـــة والمجاهدة مرحلة تطورية تأتى عنـــد الصوفية بعد مرحلتين يتمثلان فى العمل الظاهرى والعمـــل الباطنى ، وفيها « يقوى سلطان الروح وتتحرر النفس من الأدران الأرضية ، فتسمو وتصفو حتى تتطبع فيها حقائق العالم وأسراره ، ويتسكب فى القلب نور ينكشف به جمال العالم وجلاله ودقائقه وأسراره ، فيرق الحس ، ويتنبه الشعور ، ويستيقظ الاحساس ، فتتكون حركة حياة فى المشاعر عامة ، وتتشعر تلك المشاعر بلذة عليا ، وعلوم نورانيه تتقوى فى النفس حتى تصير صفة لازمة ويتوالى الكشف للنفس وتزاح عنها الحجب شيئا فشيئا حتى تصل الى الأنوار العليا • ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الفناء الكامل بوصول النفس الى مرتبه شهود الحق وانكشاف ووضـــوح العوالم الخفية والأسرار الربانية »(١٧) •

واذا كان السحار فى منزعه قد عالج نشأة الرسول وحياته متأثرا بتيار الفكر الصوفى كما أوضحنا فان كثيرا من المفكرين ممن تنـــاولوا حياة الرسول ﷺ قد اكتفـــوا بذكر وقائع التاريخ التى شـــاهدها أو شارك فيها • شاهدين له بالســـمو الأخلاقى ، ومبعدين ســـاحته المحمدية عن أرجاس الجاهلية وما وقعت فيه من شرك وعبودية • ولم ينس السحار تلك الوقائع بالطبع وانمـــا عرض منها ما يتـــوافق مع منهجه فى معالجة السيرة ذلك المنهج الصوفى الواضح الذى عبـــر عن ملامحه من خلال فكره وأسلوبه ، وقد رأيناه يستخدم ألفاظ الصوفية ويستمد مكونات اسلوبه من قاموسهم فى معظم الأحيان •

وقد رأينا من المحدثين من لجأ الى تفسير لجوء الرسول ﷺ الى الغار للتعبد بما يتفق مع فكر السحار فى كثير من جوانبه • فقد فسر الدكتور سعيد البوطى اختلاء الرسول ﷺ قبل البعثة عـــلى أنه كان

---

(١٧) الغزالى • للأستاذ طه عبد الباقى سرور ص ٦٤ وما بعدها •

وسيلة من وسائل التحقيق لبعض دوافعه الوجدانية التى تتمثل فى الخوف والرجاء والمحبة •

فالوسيلة الى « محبة الله تعالى بعد الايمان به كثرة التفكير فى آلائه ونعمه والتأمل فى مدى جلاله وعظمته • ثم الاكثار من ذكره تعالى بالقلب واللسان ، وانما يتم ذلك بالعزلة والخلوة والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها فى فترات متقطعة من الزمن(١٨) •

ثم علق على تلك الحالة بأنها من حالات التصوف عند جمهور العلماء والباحثين • والذى نميل اليه فى هذا الشأن أن الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام « معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته أو التشكيك فى شىء من ذلك • وقد تعاضدت الأخبار والاثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ، ونشأتهم على التوحيد والايمان • بل على اشراق أنوار المعارف ونفحات الطاف السعادة(١٩) •

فالقاضى عياض يخالف بهذا الاتجاه مذهب القائلين باكتساب الأنبياء للفضائل ، وحصولهم عليها عن طريق الرياضة والممارسة وغيرها ويرى أن هذه الفضائل خصوصية ربانية • فقد ذكر عند تعرضه لذكر أخلاق الرسول ﷺ ما يؤكد هذا الموقف حيث رأى أن رسول الله ﷺ كان « مجبولا عليها فى أصل خلقته وأول فطرته ، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة بل بجود الهى وخصوصية ربانية — وهكذا سائر الأنبياء »(٢٠) •

---

(١٨) فقه السيرة • للدكتور محمد سعيد البوطى ص ٦٦ •
(١٩) الشفا للقاضى عياض جـ ٢ ص ٢٥٧ •
(٢٠) المصدر السابق ص ٢٠٧ •

ويزيد ذلك تأكيدا بقوله : « ثم يتمكن لهم الأمر وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصـــاوا الى الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة أو رياضة »(٢١) •

والأمر الذى تجدر الاشارة اليه بعد وضوح المنهج الذى عالج الكاتب من خلاله نشأة الرسول ﷺ وحياته وتلك النشأة كان منطلقا من رؤية ذاتية ترتكز على بعض المظروف التى أحاطت بالرســـول فى صغره كاليتيم وفقدان الأم والجد ، وما ترتب على تلك الظروف من الاحساس بالوحدة وايثار التأمل • ثم تنطلق الرؤية بعد ذلك عن طريق تكثيف المواقف ، والمبالغة فى ابراز دلالات الأحداث والوقائع بما يتلاءم مع فكر الكاتب الذى آمن به ودعا اليه ، ذلك الفكر الذى يرتكز على دعامة أساسية ينهض عليها تفسيره الروحى للتاريخ • وتتمثـــل هذه الدعامة فى أن ازدهار الروح ، ونماء الحياة الباطنية بالمجاهدة وسيلة الى غاية سامية • حيث يرتفع الانسان عن طريقها الى مدارج السمو والكمال بعيدا عن حاجات الغرائز البشرية ، ومتطلبات النفس والهوى •• والانسان عموما اذا فعل ذلك وسار فى هذا الطريق ، سوف يرتفع ويسمو وتزدهر حياته •

وهذا هو المنطلق الذى انطلق منه السحار ، وهذا هو الأساس الذى اعتمد عليه فى بلـــورة نظريته فى تفسير التاريخ على أســـاس دينى •

ومن هنا لا نعجب اذا وجدناه فى تصوره للشخصيات الاسلامية التى عاصرت حياة الرسول ﷺ وآمنت به وبدعوته ، ينطلق من الموقف السابق فى تصوره لحياة الرسول قبل البعثة •• فيتابع حياةالشخصية

---

(٢١) المصدر السابق ص ٢١٣ •

التى يتناولها فى بيئة الجاهلية ، مبرزا أنمـاطها السلوكية ونظـرتها للحياة بما يتلاءم مع الفكر الجاهلى فى حماقته وسـفاهته ، حتى اذا باشرت حياة النور فى ظل الدعوة تغيرت النظرة وتبدلت الحياة ، سموا فى رحاب الايمان ، واشراقا فى نور اليقين .

ومن مجموع الشخصيات التى اختط لهـا هذا المنهـج ، وتابع سيرها فى الحياة على أساسه ، تغيرت المفاهيم وارتقت الحياة .

فأبو هريرة رضى الله عنه عندما أعتزل الناس وجلس الى نفسه : « استجماعا لشتات ذاته ، وامتلاكا لزمام أمره ، لكى يزيد فى خصب حياته الباطنية ، ويضـاعف من ثرائه الداخلى .. حتى اذا ما بلغت أذنيه الدعوة الى الله كان معدا اعدادا نفسيا للتصديق والهجرة »(٢٢)

وعلى وحى المنهج تناول شخصية « ثمامة بن أثال الحنفى « من أهل اليمامة الذى ربط فى سارية مسجد رسول الله ﷺ أسيرا ، وكان وهو مكبل بالقيود يتابع لرسول ﷺ وسيرته مع اهل الصفة ، ويرى عدم تميزه عليهم . فتحول ـ وهو السيد العظيم الذى أنف الطعام الجاف عندما قـدم اليه ـ من غطرسة الجـاهلية الى ذل الايمـان والخضوع لله بعد أن ذاق حلاوة اليقين .. ولم يكن ذلك عند السحار الا لأن قلبـه قد تحرر « فلم يعد مأخوذا بسـحر الملموس والمرئى والمسموع ، بل تعلم مراقبة الضـمير فاكتسبت ذاته عمقا وخصـبا وثراء ، فاذا بأنوار المعارف تشرق من باطن قلبه ، واذا به يشـعر انه قد اقترب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، وأن الله قد افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته المبذولة بحكم الجود والكرم ، وقد تيقن بعد أن ذاق حـلاوة الايمان . أن القلوب المشغولة بغـير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله »(٢٣) .

---

(٢٢) د. عوة ابراهيم . للسحار ص ٣٢ .

(٢٣) غزوة الخندق : للسحار . ص ١١٠ .

وسلمان الفارسى بعد أن أشرق نور الايمان فى قلبه « ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفى من مولاه ، فلمع من قلبه من وراء الغيب شيئا من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفـريغ القلب من شـواغلها ، والاقبال بكنه الهمـة على الله »(٢٤) •

وأهل المدينة بعد اسلامهم أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفى الله ويستشعرون هدوءا نفسيا وان كانت أفئدتهم ترتجف فرقا من خشية الله ، فقد عرفوا لذة النظر الى الله والأنس به ، وتصـفية قلوبهم وتزكيتها بذكره فاضت عليهم الرحمة وانكشفت الأسرار •

وقبلهم فى مـكة ذاق شـباب المؤمنين حلاوة الايمـان ، فكانت نفوسهم حرة وارادتهم طليقة ، لما فضلوه عن ديـن الآباء ، فكانوا يشعرون بحرية حقة ••• وان كانوا مكبلين بالأغـلال ، وان كانت أجسادهم تمـزق بالسياط ، أو تكوى بالنار ، فقد أشرق وجـودهم بالاندماج فى الوجود بمحض حريتهم ، والاتصال بمن فوق الوجود بانجذاب أنوار أرواحهم الى نور السموات والأرض فغمرهم وهم فى محنتهم نور على نور(٢٥) •

ولعل هذا المنهج فى المعالجة كان أكثر وضوحا فى تناوله لحيـاة السيدة خديجة من غيرها • فقد حدثها محمـد عن ربها قبل البعثـة فأحبته ، وكانت تصدر فى حبها له عن وعى خاص ، وطريقة فى الوجد عرفناها عند الصوفية متمثلة فى حب الذات • فقد « أحبت خديجة ربها لذاته ، وتعظيما لجلاله ، فغرست فى قلبها غريزة النور الالهى وأصبحت

---

(٢٤) حجة الوداع : للسحار • ص ١٤ •
(٢٥) عام الحزن : السحار ص ١٢ وما بعدها •

تدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، وصارت لذتها وبغيتها فى اشراق نور اليقين فى فؤادها ، وصارت ألذ المعارف عندها وأطيبها وأشهاها العلم بالله »(٢٦) •

وأمام هذا الحب تلاشت النزعات المادية وتبدلت الحياة •

من هذا وغيره رأينا السحار يصدر فى تفسيره لسلوك الشخصية من منطلق صوفى يستند أساسا على نظريته فى تفسير التاريخ على أساس روحى كما قلنا • ولا نعيب هذا المنهج عليه مادام بعيدا عن ساحة النبوة والرسالة لأن الله قد قضى فى شأنها بما لا يصح معه اجتهاد أو تأويل •• أما خارج هذا الحد فلا عليه أن عالج بمفهوم صوفى أو غير صوفى • بل ان فى ايثاره لهذا المنهج فى تفسير المواقف وتصوير الشخصيات التى صاحبت الرسول وآمنت به اضافة جديدة فى اسلوب الكتابة التاريخية اخرجت السيرة النبوية عن ذلك النطاق التقليدى الذى اتسم به اسوب الكتابة فيها زمنا طويلا •

غير أن هذا المنهج المتمثل فى التصور الصوفى الذى تصدر الشخصيات فيه عن حياة تأملية مستغرقة قد يؤدى بالبعض الى اضافة صفة الانعزالية ، واعتمادها كسمة للمنزع التأملى الذى حدده الكاتب اطارا للحركة السلوكية للأشخاص • وهذا ما لم يتورط فيه السحار ، فقد ركز عليه فى بورة الحركة الايجابية للسلوك • فما كانت تلك العزلة التأملية معوقا ولا حاجزا فاصلا بين المؤمن ومجتمعه ، وما كان رسول الله ﷺ وهو المثل الأعلى كاهنا •

ولهذا عاشر قومه ، ورصد بعين الفطنة أفعالهم وقوم حركاتهم ومعتقداتهم ، وكان على علاقة مباشرة مع العالم • يحاول ببصيرته

---

(٢٦) دعوة ابراهيم ، ص ٥٢ •

النفاذة أن يغوص ليكشف عن جوهر الأشياء ، وما كان بمعـــزل عن الآخرين »(٣٧) •

ولكنه على الرغم من تلك المعاشرة لم يرضخ لشىء من عاداتهم وتقاليدهم ، وكانت رؤيته للأشياء متفتحة تتصـــل فى أعماقها بالنـــور الذى بدأ يغمر قلبه كلما ازداد تأمله فى الوجود ، وكان يعرض كل ما يرى وما يسمع على مقياس ذاته « فطفق يتأمل حال قومه ، عبـــودية مسفة ومذلة للبشر ، وحرية مطلقة •• حرية تنخر قلب الوجود وتعزز سموما خبيثة تشيع فى الكون الفساد ، وعبودية قاسية تهوى بالانسان الى مهاوى الانحطاط الى مستنقعات الوحل والأقذار •• انه يحس بضرورة تنظيم هذه الحـــرية • بل تقييدها بنـــواة لتنطلق فى طريق النجاة »(٣٨) •

واذا كان السحار لم يتورط فى الحاق صفة العزلة بالنبى،وأبرز معايشته الكاملة الواعية لحياة قومه عن طريق الاحتكاك بهم ، والتعامل معهم • فانه تورط فى ابرازه لشخصيته بعد تلك المعايشة ، وتعرفـــه على مظاهر الفساد فى حياتهم •• فى صورة المخلص الذى تجمعت لديه عوامل الرغبة الأكيدة فى التغيير الفعلى للواقع والثورة عليه • بل والمؤهل فى النبوة لهذا السبب !

فقد بالغ السحار فى ابراز ذلك وجعل محمدا ﷺ ينتظر النبوة، ويجاهد من أجل الوصـــول اليها آملا فى قيادة العالم الى شـــاطىء الأمان •

نجد ذلك كثيرا فى تعبـــيرات الكاتب المتعددة التى صـــورت هذه

---

(٢٧) اليتيم • ص ١١٦ •
(٢٨) المصدر السابق ص ١١٨ وما بعدها بتصرف •

الرغبة وحسدتها • فالنبى ﷺ كان قبل مبعثه « يطمع أن يكون كاتم أسرار القدرة الالهيـــة • بل الوسيط الذى يحمل أوامر السـماء الى الناس ، لاسعاد البشرية جمعاء »(٢٩) •

ولأنه يريد أن يسير فى مواجهة قومه المتدفقين فى سيل الخطيئـة ليصل الى الآفاق العليا ، فهو يتسلح بأسـلحة المقاومة والصـمود والشجاعة التى تؤهله لأن يقاوم التيار(٣٠) •

ولأنه يفكر فيما هو كائن وفيما ينبغى أن يكون •• فيما عليـه قومه ، وفيما يرجو أن يكونوا عليه • وانه يعانى من مثل هذا التفكير معاناة شديدة •• وهذا الألم يحقق تطوره الروحى ، وينمى حيـاته الباطنية ويقوده الى الغاية التى صارت هدفه •• أن يسمو بمشـاعر البشرية ، وأن يجعل الانسان يستشعر سرورا أعمـق من كل سرور مبعثه الجسد وأظهر من كل مباهج الدنيا(٣١) •

وقد دارت أفكاره قبل البعثة حول امكان الاصلاح ووسائله • بعد معايشته لتيار الفساد المستشرى فى قومه ، وقد ملك من وسائل الادراك ما يؤهله للقيام بدوره حتى أصبح « يعتقد اعتقادا راسـخا بامكان النهوض بقومه • بل بالبشرية كلها »(٣٢) •

بل ان الأمر تطور الى ثورة مكبوته ينتظر لها انفجارا «انه يثور على دين قومه ، ويثور على عادات قومه ، ويثور على الفسـاد الذى استشرى فى قومه ، وان كانت ثورته لانزال مكبوته فى نفسه ، فانها يوم أن تبلغ ذروتها ستنفجر لتدمر حصون الشرك ، وأوكار الفساد،

---

(٢٩) المصدر السابق ص ١٥٢ •
(٣٠) خديجة بنت خويلد ص ١٦ •
(٣١) المصدر السابق ص ١٨ •
(٣٢) المصدر السابق ص ٣٤ •

وأنصار المرزيلـــة . الذين ينشرون بين النـــاس الضـــياع والخسران المبين »(٣٣) •

والرأى الذى أميل اليه أن السحار فى تصوره هذا قد حاد عن الصواب ، وخاف نصوص القرآن القاطعة بأن الرسول ﷺ « لم يكن قد فكر قبل الوحى والتنزيل بالدعوة وأمل أن يكون هو الذى اصطفاه الله ورآه أهلا لوحيه وتنزيله »(٣٤) •

والآيات التى ترشد الى ذلك نجدها فى قول الله تعـــالى « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون »(٣٥) •

وقوله عز وجل « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك »(٣٦) وفى قوله عز من قائل :

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتـــاب ولا الايمان • ولكن جعلناه نورا نهدى به من شاء من عبادنا »(٣٧) •

ولاشك أن الكاتب قد صدر فى فهمه هذا عن تأثر ببعض الأعمال الفنية التى سبقت كتابته للسيرة النبوية ، والكتـــابات التى انتشرت وراجت مع بداية العقد الخامس من هذا القرن تعبيرا عن الاتجاهات الثورية والفكر المنعوت بالتقدمية • والتى صور فيها رسول الله على أنه ثائر وبطـــل مخلص ، ازدحمت ذهنه صـــور الفساد ، واستوعب

---

(٣٣) المصدر السابق ص ٩٤ •
(٣٤) سيرة الرسول • محمد عزة دروزة جـ ١ ص ٢٣ •
(٣٥) سورة يونس • آية ١٦ •
(٣٦) سورة القصص آية ٨٦ •
(٣٧) سورة للشورى آية ٥٢ •

حركة المجتمع المتناقضة ، فأمـل فى دحر الفساد ، وتعلق بالرجـاء منتظرا حتى تهيأت له فرصة الانطلاق الى تغيير الواقع بمـا بذر من تعاليم ، وبما اختط من قيم •

وقد كانت أكثر الأعمال أصالة فى هذا الاتجاه « محمد الثـائر الأعظم » لفتحى رضـوان (١٩٥٤) و « محمد رسـول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوى (١٩٦٤) •

وان كان السحار قد تفوق عليهما فى استيعابه للحركة التاريخية ، وكان أكثر منهما دقة وتفصيلا لابعادها ، ومتابعة ملامح شخوصـها على كثرتهم وتباين أفكارهم وميولهم • الا أنه لم يلتق بهما على جسور الفكر الا فى الموقف الأخير •

المراجـــع

١ ــ بشائر النبوة الخاتمة الدكتور رؤف شلبى نشر مجمع البحوث الاسلامية ــ القاهرة •

٢ ــ حجةالوداع عبد الحميد جودة السحار ــ دار مصر للطبـــاعة ١٩٧٠ ــ القاهرة •

٣ ــ خديجة بنت خويلد عبد الحميد جـــودة السحار ــ دار مصر للطباعة ١٩٦٨ ــ القاهرة •

٤ ــ دعوة ابراهيم عبد الحميد جودة السحار ــ دار مصر للطباعة ١٩٦٨ ــ القاهرة •

٥ ــ سيرة الرسول ﷺ « صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية » محمـــد عزة دروزة ط ــ ٢ دار احيـــاء الكتب العربية (بدون تاريخ) •

٦ ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض بن موسى اليحصبى الأندلسى تحقيق . أسامة الرفـــاعى وآخرين مكتبة الفـــارابى ــ دمشق (بدون تاريخ) •

٧ ــ عام الحزن ــ عبد الحميد جودة السحار دار مصر للطبـــاعة ١٩٦٨ القاهرة•

٨ ــ الغزالى ــ طه عبـــد الباقى سرور دار المعـــارف ــ القـــاهرة بدون تاريخ •

٩ ــ غزوة الخندق عبد الحميـــد جودة السحار دار مصر للطبـــاعة ــ ١٩٦٩ القاهرة •

١٠ ــ فقه السيرة الدكتــور محمد سعيد رمضــان البوطى الطبعــة السابعة ١٩٧٧م القاهرة •

١١ ــ فى الفلسفة الإسلامية الدكتور ابراهيم مدكور القاهرة ــ بدون تاريخ •

١٢ ــ اليتيم عبد الحميد جودة السحار دار مصر للطباعة ١٩٦٧ م ــ القاهرة •